رفـــــح

عيون رأت فاجعة وعاشتها بكل تفاصيلها

كتبت : ميرفت عوف

كنا نتابع من غزة المدينة و رام الله وغيرها من المدن الفلسطينية و حتى على الصعيد العربي والدولي أخبار رفح في أرقام... أعداد الشهداء والجرحى والبيوت التي هدمت والعائلات التي شردت وعدد الأطفال والنساء الذين تركوا بيوتهم وذكرياتهم تحت الركام ...

ما حدث في مخيمات رفح واحدا تلو الآخر من مذابح وجرائم تفاصيلها تُبكي القلوب دما وحسرة، «البيدر» سجلت مقتطفات من تفاصيل معاناة عاشتها مخيمات رفح وما زالت تعيشها: «كنا نيام وبعضنا الآخر يستعد للنوم.. الذي حدث لم نعتده من قبل رغم كل الاجتياحات التي مررنا بها.. إنها وحوش تستهدف الجميع..تستهدف من لا يملك السلاح من قبل من يملكه ... تستهدف فلذات أكبادنا وقلوبنا وجدران منازلنا الفقيرة.. تستهدف كل شيء ..نعم كل شيء ...« هكذا تتحدث أم شادي عن لحظات البداية للاجتياح الأخير الذي تعرضت له مخيمات رفح » وتضيف »كان صوت الانفجارات قويا يهز الحي بأكمله وصراخ يخرج من كل مكان من كل زقاق.

وبسرعة تتلاحق فيها دقائق الساعة واحدة تلو الأخرى كانت المنازل التي تجاورنا تهدم بقوة كبيرة، وبصوت متقطع حزين نستذكر الماضي القريب الأليم تقول أم شادي «خرجنا قاصدين بيت أقربائنا الذي اعتدنا الذهاب إليه عند حدوث مثل تلك الاجتياحات لكن الطرق كانت محاصرة والمقاومون يصرخون علينا بأن نتجنب هذا الزقاق وذلك الشارع وجنود الاحتلال يعتلون المباني العالية ويصوبون أسلحتهم تجاه الجميع .

اخرجوا لرصاصنا

حرم مخيم يبنا من الكهرباء وعلى صوت مكبرات تنادي بالرحيل للأطفال ونساء المخيم بين زخات الرصاص والقذائف التي كانت تخترق الأجساد، سحر الهمص كانت واحدة مما اخترقت احدى تلك الرصاصات صدرها تقول سحر «الحمد لله .. لم يصبني إلا القليل مما أصاب الآخرين، فقبل أن يهدموا بيتي اخترقت رصاصة جدران منزلي ثم اخترقت صدري ولم أكن الوحيدة التي أصبت قبل أن يصبح المنزل أطلالا فزوجة عمي كانت إصابتها أكثر خطورة مني وما زالت ترقد في المستشفى الأوروبي بعد أن اخترقت رصاصة معدتها، أما عن كيفية اسعاف هاتين الجريحتين فتقول سحر«لقد بقينا ننزف ٦ ساعات غطت الدماء أثوابنا ثم اتصل عمي في الإسعاف وأخذ بعض الإرشاد من المسعف لإنقاذنا في جو عصيب لا نسمع فيه سوى أصوات الموت تحف في كل مكان.

حتى الاطفال!

ويقول أنيس وهو واحد من أبناء مخيم يبنا «كانت أحداث الاجتياح محزنة ومؤلمة تفاصيلها، حفرت بذاكرة الأطفال قبل الكبار». أما عن أكثر تلك المواقف تأثيرا في نفس أنيس، فيقول لقد استشهد صلاح –١٠ أعوام ، عندما حاول قطع الشارع فقد فجرت رأسه رصاصة ٨٠٠ وتناثرت دمائه على الجداران على مرأى من عيون أطفال آخرين أخذوا يصرخون بنبرات صوت لا تعرفه سوى عيون رأت فاجعة وعاشتها بكل تفاصيلها.

قتلوا الطفل...وخلفوا حسرة رحيله المبكر وهدموا البيت... وأبقوا على أقساطه

كتبت: هيام حسان

عندما أنهت ام إياد القرناوي حديثها منهارة عن المصاب الذي ألم بأسرتها دار برأسي سؤال: كم تحتاج ام اياد وعائلتها من دعم ومساندة كي تنهض من جديد، وعندما أخذت المرأة في البكاء من يكفف دموع رفح المنهمرة بشكل متواصل تحت تأثير ضربات الاحتلال المتلاحقة لها.

وعائلة القرناوي ليست الا واحدة من مئات العائلات الرفحاوية التي اصطلت بسياط وآليات الاحتلال هناك قتل وتدمير، خراب ، تشريد ترويع، الخ ، وهو ما يكفي أن يضمنه قاموس الانتهاكات بحق كل مقدرات الحياة في رفح حيث حصيلة الخسائر لا تعجز عن تعدادها سجلات الجهات المسؤولة وتلك المهتمة رغم تضاربها أحيانا.

قبل المصاب الذي وقع خلال الاجتياح الأخير لرفح كانت عائلة احمد القرناوي (أبو إياد) تعتبر من العائلات النموذجية في المخيم فالعائلة صغيرة الحجم نسبيا ـــ خمسة أبناء بخلاف الام والأب ـــ تعيش في بيت واسع نسبيا خمس حجرات تتيح لمعظم أفراد الأسرة أن ينفردوا بحجرة مستقلة ودخل المعيل أبو إياد رغم ضالته يفي باحتياجات الأسرة حيث يعمل أبو إياد عاملا بسيطا في إحدى العيادات الصحية التابعة لوكالة غوث وتشغيل اللاجئين في المخيم.

ولا تعرف أم إياد تاريخا محددا لمصاب العائلة رغم أنها تذكر جيدا يوم استشهاد ولدها إبراهيم على يدي قناص إسرائيلي ولا تنس أبدا اليوم الذي فقدت فيه الأسرة بيتها بأنياب جرافة صماء، ذلك أن الخطر كان يحدق بالأسرة ويقترب منها شيئا فشيئا مع توالي أيام انتفاضة الأقصى.

مع كل يوم جديد كانت دائرة الخطر تضيق من حول الأسرة الصغيرة حتى جلاء اليوم الذي وصلت فيه إلى أضيق مدى لها أو أحست الأسرة بنذير الخطر الداهم يتطاير من عجلات الدبابات والجرافات العسكرية الاسرائيلية التي اخذت في الاقتراب من البيت الذي يقع بلوك G وعندما جاوزت الساعة الحادية عشرة مساء كان البيت عاريا من الامان من جهاته الأربعة، ما حدا بالأسرة الصغيرة إلى المغادرة على وجه السرعة إلى بيت شقيقة أبو «إياد» الواقع في الحي نفسه أيضا عله يكون أكثر أمانا ولو من إحدى جهاته فقط.

عندما وصل أفراد عائلة القرناوي بيت «العمة» كانت الساعة أطبقت على الثانية عشرة والنصف بعد الليل، وكانت دائرة الخطر أطبقت على بيت العمة من حيث لم يتوقع أحد فالخرافات أخذت أنيابها من جهات البيت وأطرافه التي كان الجميع يتوهم أنها آمنة وفي منأى من الخطر.

كانت دائرة الخطر تزداد ضيقا بمرور الدقائق والثواني، ووجدت البيت وسقوفه الاسبستية تهتز بشكل مخيف عندها حزم أفراد العائلية أمرهم وقرروا الخروج ومقابلة جنود الاحتلال المتمترسين في دباباتهم وجرافاتهم من اجل إخبارهم بأن البيت يضم في جنباته ما هو أكثر من قطع الأثاث فهو يضم نفوسا بشرية من مختلف الأعمار وكلا الجنسين وعلى الاقل يحوي اطفالا لا ناقة لهم ولا جمل في كل ما يدور من حولهم.

خرج الاطفال ليشاركوا في المهمة النبيلة ايضا ويخبروا جنود الاحتلال بأنهم موجودون (نحن هنا) علهم يتريثوا في هجومهم ويتيحوا لهم فرصة الإفلات من أنياب الجرافة، وكان بينهم إبراهيم الصغير الذي لم يتجاوز العاشرة من العمر، لوح بيديه وصرخ بأعلى صوته مستنجدا بالجنود من أنفسهم فأظهروا المودة والرحمة واخرسوا دباباتهم وجرفاتهم لحظات كي يسمحوا المجال للنفوس البشرية أن تخرج وتغادر دائرة الخطر المحدق.

استدار إبراهيم مع الآخرين ليهرع إلى حيث بيت عائلته الذي تحول إلى بقعة أكثر أمانا من بيت عمته رغم ما يحيط به من مكامن خطر وتهديد للحياة ، رصاصة قناص إسرائيلي خرجت من بين الآليات الصامتة ذلك الصمت العجيب فاخترقت ظهر الطفل إبراهيم وأصابت صدره أيضا فصرخ صرخة لم يصرخها من قبل ولا من بعد.

التفت الجميع وكان إياد الشقيق الأكبر لإبراهيم هو الأسرع في ردة فعله التقط الطفل إبراهيم وحمله بين يديه، واخذ يجري بحمله بعيدا عن الجنود وآلياتهم قدر المستطاع: قاصدا اقرب مكان يمكن أن ينقذه من موت محقق.

تقول أم إياد: كان إياد الأكثر تأثرا باستشهاد إبراهيم لأنه توفي بين يديه ولم تفلح محاولاته لإنقاذه أو يدعه ليموت!

إياد يدرس حاليا في الصف الأخير من المرحلة الثانوية (التوجيهي) وأمه تجزم بأن تأثير المصاب امتد ليشمل تحصيله الدراسي، كما ترك أثرا بالسلب أيضا على بقية أخوته، وذلك رغم الاستقرار النفسي الذي تسنى للعائلة بعد انتقالها إلى المنزل الجديد.

أفراد عائلة القرناوي الآن بحاجة إلى الاستقرار النسي هذه، حيث يعيشون في بيت متواضع ضيق في تل السلطان.

يقول احمد القريناوي الآن (أبو اياد): لقد سئمنا الترحال والتنقل والهرب خوفا وفزعا من بيت إلى آخر، لذلك لن نغادر الى بيت آخر أيا كانت المغريات «... كفانا تنقلا وترحالا.»

أما أم إياد فلا تكف عن تذكر البيت الذي اقتلعته الجرافات الإسرائيلية من مكانه وأحالته إلى كومة من حجارة صغيرة وكبيرة وجعلته في مرمى دائم للرصاص والموت.

تقوم أم إياد: كان بيتا جميلا، بنيناه طوبة طوبة وسددنا ثمنه قسطا قسطا موضحة أن آخر قسط من أقساط القروض التي استعانت بها العائلة لبناء البيت لم يتم تسديدها بعد، والبيت الأول القديم أو المجرف كما يحلو لهم أن يطلقوا عليه يعني الكثير بالنسبة لإفراد القرناوي الذين فقدوا بفقدانه ميزة نادرا ما تتوفر لعائلات المخيم من حولهم« حجرة لكل فرد» وفي البيت الجديد الذي يتكدسون في حجرتيه الوحيدتين كل ليلة وكأنه الملاذ الأخير لهم في عالم يصخب بالرصاص والتجريف يتذكرون بإلحاح البيت المجرف ٢٥٠ مترا مربعا وثلاثة عشر عاما من ضنك العيش لتسديد أقساط البيت .. وطفل جميل غائب اسمه «ابراهيم».

> «...بلغت الخسائر البشرية الناجمة عن الاعتداءات الإسرائيلية على محافظة رفح خلال الفترة الممتدة بين٢٠٠٠/٠٩/٢٩ حتى ٢٠٠٣/١٠/١٨، ٢٥٦ شهيدا، بينهم ٧٣ طفلا دون سن الثامنة عشرة، وأكثر من ٢٤٥٠ جريحا، بينهم ١١٠ معاقا أعاقة تامة بين الشلل والموت السريري وفقدان ذراع أو ساق أو عين...».
> «...وفيما يتعلق بالعدوان الأخير على «رفح» فقد بلغت الخسائر المادية، ١٤٦ منزلا كانت تضم ٢٣٥ أسرة هدمت هدما كليا، ودمرت بيوت أكثر من ٣٨٥ أسرة عندما هدما بيوتهم ال٢٤٩...»
> مدرسة الشهيد أبو إياد للكادر التنظيمي

تتمة/شخصيات سياسة وأكاديمية

تعطيل جزء كبير من الخطط والبرامج التي خصصت لمساعدة الفئات الفقيرة والمهمشة والمزارعين الذين مازالوا يواجهون سياسة مصادرة أراضيهم وإقامة جدار الفصل العنصري والاستيطان.

وتابع «إن الانشغال غير المبرر في تشكيل الحكومات وإطالة الخلافات بشأنها جعل الحكومة وكأنها تسير في واد وغالبية المواطنين يسيرون في وادآخر« مؤكدا أن ذلك كان له بالغ الأثر في تعطيل البرامج والمساعدات التي كانت من المفترض أن تحظى بها غالبية المواطنين والذين أصبحوا يدفعون الثمن الأكبر جراء حالة التخبط.

وشدد خريشة على أهمية توسيع خيارات المواطنين والبحث عن خيارات جديدة، من خلال اللجوء إلى الإعداد والتحضير الفعلي لإجراء الانتخابات الرئاسية والتشريعية والبلدية حيث يكون بمقدور الشعب اختيار قيادته وفق برامجه وأهدافه واولوياته.

كما أكد خريشة على أهمية تكريس الحوار الوطني الشعبي بمشاركة غالبية قطاعات المجتمع وعدم اقتصاره فقط على الأحزاب والفصائل، وتوسيع الحوار بما يشمل رؤساء الجامعات والأكاديميين ورؤساء البلديات للخروج بتوجهات وسياسات حقيقية تستند إلى الواقع الفلسطيني في ظل الظروف التي نعيشها بغية الوصول إلى مأسسة المؤسسات الرسمية وغير الرسمية بعيدا عن شخصنة الوزارات والمؤسسات الرسمية التي يبقى جزء كبير منها رهينة لمجيء الوزير أو غيابه، أو انتقاله لوزارة أخرى.

خطط الطوارئ عمل لا بد منه

واتفقت د.ليزا تراكي مع أهمية إيجاد خطط الطوارئ التي تساهم في مساعدة فئات وقطاعات ومؤسسات المجتمع على الاستمرار، خاصة الجامعات والمعاهد، مؤكدة انه على الرغم من أن الاحتلال وسياساته يمثل العائق الأكبر أمام أية خطط وبرامج تنموية، إلا أن ذلك لا يجب أن يمنعنا من الاستمرار في أداء مهامنا واستمرارنا في العمل.

وشددت تراكي على أهمية وضع السلطة الوطنية لاولويات الإنفاق والميزانيات في القطاعات المهمة والرئيسية مشيرة إلى أن الجامعات الفلسطينية على سبيل المثال تعيش حالة من الشلل نظرا الغياب الموازنات المالية المخصصة لدعم الجامعات التي تعتبر من أهم الاستثمارات بعيدة المدى في الواقع الفلسطيني.

كما أكدت ان ذلك يجب أن ينسحب على القطاعات الأخرى المهمة ووضع الخطط لضمان استمرارية المساعدات للفئات الاجتماعية المهمشة ودعم قطاع العمال وفق رؤية تنموية حقيقية.

ورأت تراكي أن هناك تأثيراً مباشرًا لعدم استقرار الحكومات على الخطط والبرامج التنموية خاصة في حال وجود علاقة شراكة في المشاريع ما بين المؤسسات الرسمية والأهلية، موضحة أن هذا الأمر له تأثيره بشكل متفاوت من وزارة ومؤسسة إلى أخرى، موضحة أن وزارة التربية والتعليم العالي على سبيل المثال لها هيكلية ثابتة والتي قد لا تتأثر بشكل كبير بغياب الوزير أو تبديله لان برامجها وخططها وضعت استنادا للحاجة التي يتطلبها الحفاظ على العملية التربوية والتعليمية، في حين ان هناك وزارة تتأثر بصورة اكبر بهذه التغييرات وعدم الانتظام في تشكيل الحكومات.

تغير الطواقم الإدارية أيضا معضلة

وعلى الصعيد ذاته رأى د.عبد الكريم عاشور نائب المدير العام لمؤسسة الإغاثة الزراعية في الضفة الغربية وغزة، أن الإشكالية الرئيسية لا تكمن في تبدل الوزراء بل في مساعي العديد من الوزراء تغيير الطواقم الادارية واستبدالها بطواقم جديدة تكون مقربة منهم، ما يترك أثره السلبي على عمل الوزارة وخططها وبرامجها إن وجدت بالأصل.

وأشار عاشور إلى أن الوضع الطبيعي يجب أن تكون هناك إدارة تتولى عمل المؤسسات والوزارات وفق رؤية مهنية ولا تتأثر بتغير الوزراء والمسؤولين، مؤكدا انه في الوقت ذاته على أهمية اعتماد المهنية في العمل سواء داخل الوزارات أو على صعيد العلاقات التي تربط الوزارة مع المجتمع ومؤسساته الأهلية.

وأوضح عاشور أن علاقة الإغاثة الزراعية تأثرت بشكل كبير على صعيد التنسيق والتكامل مع الوزارات المختصة، جراء تبدل وعدم استقرار الوزراء، مما يدلل على وجود حالة من شخصنة الوزارات بحيث أن غياب الوزير عن منصبه قد يكون كفيل بشأن عمل الوزارة.

ضعف المهنية وغياب المأسسة.. خلل رئيسي

ورأى صلاح حيدر عبد الشافي مدير برنامج الصحة النفسية في مدينة غزة أن الخلل الرئيسي يكمن في غياب المأسسة في مؤسساتنا الرسمية إضافة إلى ضعف المهنية مما يجعل سهولة تغيير الاولويات للوزارة مع تغيير الوزراء، مؤكدا أهمية النظر إلى الوزارات بعيدا عن الوزراء الذين يتبدلون بصورة دائمة، والعمل على تكريس العمق المهني في عمل مؤسساتنا والذي سيجعلها قادرة على المضي في تنفيذ خططها وبرامجها التنموية.

وأشار إلى أن الوزارات الخدماتية واصلت تقديم خدماتها للمواطنين وذلك نظرا لعدم ارتباطها بتوجهات الوزراء، في حين أن السياسات والخطط التنموية هي التي تتعرض للإرباك والتغيير والتبديل خاصة وان لكل وزير توجهاته وسياساته.

شخصنة الصراعات على النفوذ يزيد من الإرباك

من جانبها قالت السياسية والناشطة النسوية آمال خريشة إن ما يجري في حقل السلطة السياسية كبير ويزيد من الإرباك ويخلق مزيدا من الإخلال والتوازن ما بين الدور الفعلي للسلطة كجزء من المشروع الوطني، القائم على أساس إنهاء الاحتلال وتجسيد بناء الدولة المستقلة ومأسسة مقومات البناء والتنمية، بما يضمن ترتيب الأوضاع الداخلية على أساس الديمقراطية وسيادة القانون بمضامين التنمية الانعتاقية ببعدها الشمولي.

وأضافت أن ما جرى وما يجري في ترتيبات السلطة وفي علاقات مراكز القوى المختلفة داخلها يوسع الفجوة بينها وبين الشعب الذي ضاق ذرعا من فئوية وشخصنة صراعات النفوذ والقوة في دوائر السلطة التي لم يبقى فيها إلا النذر اليسير لمقومات سلطة وطنية من جراء الواقع الذي يفرضه الاحتلال، الذي أدخلنا سلطة وشعب الى دائرة النظام العنصري، من خلال بناء صور الفصل العنصري وبواباته.

وأشارت خريشة انه لا يمكن لاي حكومة كانت أن تصل لطموحات الشعب الفلسطيني بدون أن يكون هناك قيادة موحدة تدير الصراع وبدون إجراء انتخابات وبدون تفعيل منظمة التحرير، سيشهد المشروع الفلسطيني مزيد من التآكل والفجوات التي ستؤدي إلى حرب أهلية.